الشرق الأوسط
جريدة العرب الدولية

الاثنين ٠٩ ذو القعدة ١٤٢٦ هـ ١٢ ديسمبر ٢٠٠٥ العدد ٩٨٧٦

زهير الحارثي

قمة مكة الاستثنائية.. معادلة العقل والضمير والقرار

مرحلة دقيقة وظروف حساسة ومعطيات جديدة تشكّلت بفعل المتغيرات والتحولات في عالمنا. بات هذا المشهد البانورامي هو الصورة الماثلة للعيان عما يجول في عقول السياسيين، وهو أمر يثير القلق لدى الشعوب العربية والإسلامية، ويجعلها تفكر في مستقبلها ومستقبل أجيالها القادمة.

تُرى هل تحقق القمة الاستثنائية الآمال المعقودة عليها، بعد إخفاقات وتراجعات التكتلات الإقليمية (بدءاً بمجلس التعاون الخليجي ومرورا والمغاربي ونهاية بجامعة الدول العربية)؟! هل يكون في تفعيل التكتل الاسلامي الجديد أمل في الخروج من بيانات الشجب والاستنكار والتنظير الى معالجة أكثر موضوعية وأقرب ارتهانا الى المنطق والمعقول والممكن؟!

يبدو أن خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، استشعر بخطورة الوضع، وان ذلك يتطلب وقفة حازمة وصريحة تقتضي المكاشفة والشفافية، فعهد المجاملات قد ولى، والزمن لم يعد يرحم.

فالعالم الاسلامي يتعرض لحالة من الانهيار الفكري والديني والاقتصادي، فضلا عن مشاكل داخلية لدولة تكمن في الفساد والفقر والحروب الأهلية وانتشار الأمراض الفتاكة وبطء في التنمية وتخاذل في بناء الإنسان معرفيا وثقافيا.

ولكن لماذا مكة مكان لانعقاد القمة؟!

لقد أرادها خادم الحرمين الشريفين رسالة لكل القادة، في أن حرمة المكان وقدسيته يفرضان على الجميع أن يضطلعوا بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم في تحقيق آمال وطموحات شعوبهم. كما أن الإسلام كدين تعرض لتشنيع وتشويه على أيدي الجماعات المتشددة التي كانت سببا في ظهور

مصطلح (الحرب على الإرهاب) فكان شعارا استخدمه الغرب كذريعة لإحباط أية مشاريع ونشاطات أسلامية تنويرية.

ليس من جديد في القول إن ثمة مفاهيم مغلوطة والتباسا بيّنا لدى الغرب حول صورة الإسلام الحقيقية، ولذا كنت سعيدا بأن هذه القضايا أثيرت في القمة، كون التحضير لها لم يكن تقليديا، بل ارتهن الى العلمية إن جاز التعبير، فالمسألة لم تعد بروتوكولات ومراسيم وكلمات، بقدر ما انها دراسة وتحليل ورغبة في المعالجة، ولهذا تفردت هذه القمة بأن سبقها اجتماع موسع لعلماء ومفكرين من عالمنا الإسلامي يمثلون مختلف الطوائف والمدارس الفكرية الإسلامية ليطرحوا وجهة نظرهم حول الأوضاع الراهنة، وما يمكن أن يطرحوه من حلول. بمعنى أن هذه القمة طابعها سياسي، ولكن هيكلها ومضمونها فكري وثقافي، بدليل مشاركة العلماء والمفكرين في التحضير لمواضيع القمة بتوصلهم لـ«وثيقة مكة» لمعالجة الخلل الذي تعيشه أمتنا الإسلامية سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

أن مشاركة أكثر من مائة عالم ومفكر إسلامي في تشخيص مشكلاتنا بكل جرأة وصراحة، وفي جو أشبه بالعصف الفكري، أدت الى الخروج بتوصيات هامة، سيكون لها أبلغ الأثر على مجتمعاتنا ودولنا فيما لو تم فعلا تفعيلها ووضع آليات جادة لتحقيقها من قبل القمة.

إن هذه الندوة الفكرية التي سبقت القمة، وجاءت برغبة من العاهل السعودي، هي النقطة المفصلية في تفرد هذه القمة عما سبقها من مناسبات وقمم، وهي إرهاص لنتائج نأمل أن ترى النور، فلغة العصر تتطلب البحث العلمي والنظرة الموضوعية والنقاش البنّاء الحر.

إن المبادرة السعودية تأتي كخطوة جريئة لكشف الواقع المرير الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وهي تمثل اعترافا صريحا لما آل إليه الوضع الراهن في العمل الإسلامي المشترك، وكلنا رغبة في سماع خطاب جديد وصوت مختلف ينتقل من مفهوم الخطاب التبريري والدفاعي الإقصائي الى طرح يتسم بالشفافية ونقد الذات والعقلانية.. خطاب يؤكد وسطية الإسلام وتسامحه وتعايشه مع الآخر.

قمة مكة ربطت «السياسي» بـ«الفكري» و«الاخلاقي»، فهذا الانبثاق يرتكز على العقل والضمير وصنع القرار، مما يعني إلغاء للنزعة الميكيافيلية في الخطاب السياسي ومحاولة للاعتراف بالخلل وإعلانه ومن ثم معالجته.

إن القراءة الموضوعية لمضامين وقضايا الأمة المطروحة على القمة، فضلا عن حماسة العاهل السعودي في نجاح القمة، تفيد بأن ثمة نزعة براغماتية في ما يتعلق بالرؤية الشاملة لهذه القمة، وذلك بإظهارها كتلة إسلامية على غرار مجلس الاتحاد الأوروبي، وذلك بتفعيل العمل المشترك والانطلاق من الاقتصاد كقاسم مشترك لتعاون إسلامي ـ إسلامي، تبرز أهميته في لعبة المفاوضات مع الغير حينما تكون اللغة الفاصلة هي الاقتصاد ولا شيء غير الاقتصاد.

ولم يعد شيئا مستحيلا في أن تتحول أحلام الشعوب الى حقيقة طالما توفرت الإرادة الحقة والرغبة الصادقة لدى أصحاب القرار وصنّاعه في عالمنا الإسلامي.

نحن بحاجة الى معالجة الفقر والقمع والاضطهاد والتخلف في عالمنا الإسلامي، حتى يمكن لنا أن نتشكل ككتلة منتجة، لا سيما وهو مليء بالموارد والطاقات والإمكانات.

أن الأمل معقود أن نبتعد عن السقوط في فخ المصطلحات الكبيرة والتهويل والمكابرة وتضخم الأنا والهروب من الواقع والتهيب من المستقبل.

صفوة القول، إنه لا يمكن أن تحقق تكتلا أو تصنع اتحادا قويا وأنت ضعيف في داخلك، فالدعائم الصلبة تصنع المباني الشاهقة، وكذلك الشعوب والدول، وهذا يقتضي إعمال العقل والإيمان بالعمل، قيمة وهدفا، لنكون مشاركين في حاضرة إنسانية مشتركة، فالحال لم يعد هو ذلك الحال، والأيام حبلى، ولكن تبقى الآمال معقودة في كل الأحوال!